

الجزء الثامن والعشرون

سورة المجادلة

هي مدنية وعدة آياتها ثنتان وعشرون ، نزلت بعد سورة المنافقين .
ووجه اتصالها بما قبلها :

(١) أن الأولى ختمت بفضل الله ، وافتتحت هذه بما هو من هذا الوادي .

(٢) أنه ذكر في مطلع الأولى صفاته الجميلة ومنها الظاهر والباطن — وذكر

في مطلع هذه أنه سمع قول المجادلة التي شكت إليه تعالى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ، وَاللَّهُ

يَسْمَعُ تَحَاوُرَ كَمَا إِنْ اللَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١) الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ

نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ، إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ، وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ

مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ، وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ (٢) وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ

مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا ،

ذَلِكَ كُمْ تُوعَظُونَ بِهِ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ
شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ، فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامَ سِتِّينَ
مِسْكِينًا ، ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ
عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤) .

شرح المفردات

سمع : أى أجاب وقيل ، كما يقال سمع الله لمن حمده ، والتي تجادلك في زوجها: هي
حوالة بنت ثعلبة بن مالك الخزرجية ، وتجادلك : أى تراجمك الكلام في أمره وفيما
صدر منه في شأنها ، وتشتكى إلى الله : أى تبتئ إليه ما انطوت عليه نفسها من غم
وهم وتضرع إليه أن يزيل كربها ، وزوجها : هو أوس بن الصامت أخو عبادة
ابن الصامت ، والسمع : صفة تدرك بها الأصوات أثبتها الله تعالى لنفسه ، والتحاور:
المراودة في الكلام، والكلام المردد ، كما يقال كلمته فما رجع إلى حواراً : أى مارداً على
بشيء ، والظهار : لغة من ظاهر؛ ويراد به معان مختلفة باختلاف الأغراض فيقال
ظاهر فلان فلانا : أى نصره ، وظاهر بين ثوبين : أى لبس أحدهما فوق الآخر ،
وظاهر من امرأته : أى قال لها أنت على كظهر أمي ، أى محرمة ، وقد كان هذا أشد
طلاق في الجاهلية ، والظهار شرعاً : تشبيه المرأة أو عضو منها بامرأة محرمة نسبا
أو رضاعاً أو مصاهرة بقصد التحريم لا بقصد الكرامة ، ولهذا المعنى نزلت الآية ،
«إِنَّ أُمَّهَاتَهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ» : أى ما أمهاتهم ، والمنكر: ما ينكره الشرع والعقل
والطبع، وزوراً : أى كذباً ، فيتجرى رقبة : أى عتق عبد أو جارية ، أن يتماسا : أى
يجتمع اجتماع الأزواج ، متتابعين : أى متواليين ، فمن لم يستطع : أى لم يقدر على
ذلك لكبر سن أو ضعف أو شبق إلى النساء ، حدود الله : أى أحكام شريعته ،
وللكافرين : أى للذين يتعدون الأحكام ولا يعملون بها .

المعنى الجملى

روى أن هذه الآيات الأربع نزلت في خولة بنت ثعلبة وزوجها أوس بن الصامت. ومن حديث ذلك: «أن أوساً كان شيخاً كبيراً قد ساء خلقه، فدخل على خولة يوماً فراجعته بشيء فغضب، فقال لها: أنت على كظهر أمى (وكان الرجل في الجاهلية إذا قال ذلك لامرأته حرمت عليه) وكان هذا أول ظهار في الإسلام، فندم لساعته، فدعاها (طلب ملامستها) فأبت، وقالت: والذي نفسى بيده لا اتصل إلى وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله، فأنت الرسول صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله إن أوساً تزوجنى وأنا شابة مرغوب فى، فلما خلا سنى وثرت بطنى (كثرت ولدى) جعلنى عليه كأمه إلى غير أحد، فإن كنت تجدى لى رخصة تنعشنى بها وإياه فخذنى بها، فقال عليه الصلاة والسلام: والله ما أمرت فى شأنك بشيء حتى الآن، وفى رواية ما أراك إلا قد حرمت، قالت: ماذا كرت طلاقاً، وجادلت رسول الله صلى الله عليه وسلم مراراً ثم قالت: اللهم إنى أشكو إليك شدة وحدتى، وما يشق على من فراقه، وفى رواية أنها قالت: أشكو إلى الله فاتقى وشدة حالى، وإن لى صبية صفاراً إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إلى جاعوا، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول: اللهم إنى أشكو إليك، اللهم فأنزل على لسان نبيك، وما برحت حتى نزل القرآن فيها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا خولة أبشرى، قالت خيراً فقرأ عليها «قَدْ سَمِعَ اللهُ» الآيات.

روى البخارى فى تاريخه أنها استوقفت عمر يوماً فوقف، فأغلظت له القول، فقال رجل يا أمير المؤمنين ما رأيت كاليوم، فقال رضى الله عنه، وما يمنعنى أن أسمع إليها وهى التى استمع الله لها، فأنزل فيها ما أنزل «قَدْ سَمِعَ اللهُ» الآيات. والشارع اعتبر الظهار يمينا وأوجب فيها الكفارة عند إرادة الملامسة بأحد أمور ثلاثة على الترتيب الآتى:

- (١) تحرير رقبة (عتق عبد أو جارية) .
 (٢) صيام شهرين متواليين إن لم يجد ما يعتقه .
 (٣) إطعام ستين مسكيناً إن لم يستطع الصوم الكبير أو مرض لا يرجى زواله ،
 لكل مسكين نصف صاع من بر (رطل وثلاث) أو صاع من تمر أو شعير .

الإيضاح

(قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتمكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير) أى قد قبل الله شكوى التي جادت رسوله صلى الله عليه وسلم في شأن زوجها ، وبثت أمرها إلى ربها ، وسمع ما سمع من تحاورها مع رسوله ، والله سميع لما يقال ، خير بحال عباده ، فأنزل فيها ما أزال غصتها ، وفرج كربتها ، وأقر به عينها ، وبل ريقها ، وأرجع إلى كفها صبيتها ، الذين كانوا مصدر شقوتها ، وبهم اعتلت (تعالت واحتجت) على رسوله .

وقد فصل ما أنزل من الحكم في حادتها وأمثالها فقال :

(الذين يظاهرون منكم من نسائهم) أى الذين يقع منهم الظهار من نسائهم ، فيقول أحدهم لامرأته : أنت على كظهر أمي ، يريد أنك على حرام ، كما أن أمي على حرام — مخطئون فيما صنعوا .

(ماهن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللاتي ولدنهم) أى ما نسأوهم أمهاتهم على الحقيقة فكيف يجعلونهن كذلك ، ما أمهاتهم إلا من ولدنهم ، فلا ينبغي تشبيههن بهن . ثم زاد الأمر إيضاحاً وبالغ في الاستهجان فقال :

(وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً) أى وإنهم ليقولون قولاً منكراً لا يبيحه شرع ، ولا يرضى به عقل ، ولا يوافق عليه ذو طبع سليم ، فكيف تشبه من يسكن إليها وتسكن إليه وجعل بينه وبينها مودة ورحمة ، وصلة خاصة لا تكون لأُم ولا لأخت ، بمن جعل صلتها بابنها صلة الكرامة والحنو والإجلال والتعظيم ، إلى

أن الرجل قوَّام على المرأة له حق تأديبها إذا عوجت، وهجرانها في المضاجع إذا جمحت ولم يُعْط ذلك لابن ليعامل به أمه ، فهذا زور وبهتان عظيم .

وغير خاف ماقى هذا من الاستهجان ، وشديد التشنيع على صدور هذا القول منهم .

(وإن الله لعفوٌ غفور) لما سلف من الذنب متى تاب فاعله منه .

ثم فصل حكم الظهار فقال :

(١) (والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتأسا) أى والذين يقولون هذا القول المنكر ثم يتداركونه بنقضه ويرجعون عما قالوا فيريدون المسيس فعلى كل منهم عتق عبد أو أمة قبل التماس إن كان ذلك لديه . ثم بين السبب فى شرع هذا الحكم فقال :

(ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير) أى إنه شرع لكم حكم الكفارة عند طاب العودة إلى المسيس ، ليكون ذلك زاجرا لكم عن ارتكاب المنكر ، فإن الكفارة تمنع من وقوع الجرم ، والله خبير بأعمالكم لا يخفى عليه شئ منها ، وهو مجازيكم بها ، فاتهبوا عن قول المنكر ، وحافظوا على ما شرع لكم من الحدود ، ولا تخلوا بشئ منها .

(٢) (فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتأسا) أى فمن لم يجد رقبة ولا ثمنها فاضلا عن قدر كفايته ؛ فالواجب عليه صيام شهرين متتابعين من قبل التماس ، فإن أفطر يوما من الشهرين ولو اليوم الأخير لعذر أو مرض أو سفر لزمه الاستئفاف بصوم جديد لزوال التتابع .

(٣) (فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا) أى فمن لم يستطع صيام الشهرين المتتابعين لكبر سن أو مرض لا يرجى زواله — فعليه إطعام ستين مسكينا لكل منهم نصف صاع من بُرٍّ ، أو صاع من شعير أو تمر قبل التماس أيضا . (ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم) أى ذلك

الذى بيّنناه لكم من وجوب الكفارة حين الظهار ، لتقروا بتوحيد الله وتصدقوا رسوله وتنتهوا عن قول الزور والكذب ، وتنبهوا ما حده الدين من حدود ، وبينه لكم من فرائض ، وللجاحدين بهذه الحدود وغيرها من فرائض الله عذاب مؤلم على كفرهم بها .

وأطلق اسم (الكافر) على متعمد هذه الحدود تغليظاً للزجر كما قال في التهانون في أداء فريضة الحج « وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ » .

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُتِبُوا كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٥) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ
جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ، أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٦)
أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى
ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدْنَى مِنْ ذَلِكَ
وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ
اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧) .

شرح المفردات

يحادون : أى يشاقون ويعادون ، وأصل الحادّة اللانعة ؛ ومنه قيل للبواب حداد ،
كبتوا : أى خذلوا ، وقال المبرد: كبت الله فلانا إذا أذله ، والمردود بالذل : مكبوت ،
آيات بينات : أى حججاً وبراهين مبينة لحدود شرائعنا ، مهين : أى يلحق بهم
المهوان والذل ، فينبئهم بما عملوا : أى يخبرهم بأعمالهم توبيخاً وتقريماً لهم ، أحصاه
الله : أى أحاط به عدداً لم يرغب عنه شيء منه ، شهيد : أى مشاهد لا يخفى عليه شيء .

ألم تر: أى ألم تعلم، ما يكون: أى ما يوجد، والنجوى: التناجى والمسارعة كما قال:
«لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ» وقد يستعمل فى المتناجين كما قال: «وَإِذْهُمْ
نَجْوَى» أى أصحاب نجوى.

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أحكام كفارة الظهار وبين أنه إنما شرعها تغليظاً للناس حتى
يتركوا الظهار، وقد كان ديدنهم فى الجاهلية، ويتبعوا أوامر الشريعة، ويلين قيادهم
لها، ويخلصوا لله ربهم فى جميع أعمالهم، فتصفو نفوسهم، وتزكو بصالح الأعمال.
أردف هذا ببيان أن من يشاق الله ورسوله ويعصى أوامره، يلحق به الخزى والهوان
فى الدنيا وله فى الآخرة العذاب المهيّن فى نار جهنم؛ ثم أعقب ذلك بالوعيد الشديد،
فبين أنه لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء، فهو عليم بمناجاة المتناجين،
فإن كانوا ثلاثة فهو رابعهم، وإن كانوا خمسة فهو سادسهم، وإن كانوا أقل من ذلك
أو أكثر فهو معهم أينما كانوا، فلا تظنوا أنه تخفى عليه أعمالكم، وسينبئكم بها عند
العرض والحساب، وحين ينصب الميزان، فتلقون جزاء ما كسبت أيديكم،
وتندمون ولات ساعة مندم.

الإيضاح

(إن الذين يحادون الله ورسوله كتبوا كما كتبت الذين من قبلهم) أى إن الذين
يختارون لأنفسهم حدوداً غير ما حده الله ورسوله، ويضعون شرائع غير ما شرعه،
سيلاحقهم الخزى والنكال فى الدنيا كما لحق من قبلهم من كفار الأمم الماضية الذين
حادوا الله ورسوله، وقد تحقق ذلك يوم الخندق.

وفى هذا بشارة للمؤمنين بظهورهم على عدوهم ونصر الله لهم.

كما أن فيه وعيدا عظيما للملوك وأمراء السوء الذين وضعوا قوانين وشرائع وضعية غير ماشرع الله ، وألزموا رعاياهم العمل بها ، والجرى على نهجها ، وعمِنوا لذلك قضاة يحكمون بها ، وينذوا ماجاء في شرعهم ، والله يقول : « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا » .

نعم إنه لا بأس بالقوانين السياسية إذا وقعت باتفاق ذوى الآراء من أهل الحل والعقد على وجه يكون به انتظام شمل الجماعات ، إذا كانت لا تخالف في أحكامها روح التشريع الديني كمتعيين مراتب التأديب للزجر على المعاصي ، والجنائيات التي لم ينص الشارع فيها على حد معين ، بل فوض الأمر فيها للإمام ، وليس في ذلك محادة لله ورسوله ، بل فيها استيفاء لحق الله على الوجه الأكمل .

(وقد أنزلنا آيات بينات) أى وكيف يفعلون ذلك وقد أقننا دلائل واضحات تبين معالم الشريعة وتوضح حدودها ، وتفصل أحكامها ، وتبين سرّ تشريعها ؟ فلا عذر لهم في مخالفتها ، والانحراف عن سنتها .

(وللكافرين عذاب مهين) أى وللجاحدين بتلك الآيات عذاب يذهب بعزهم وكبرياتهم .

والخلاصة — إن هؤلاء المخادين عذابا في الدنيا بالخزى والهوان ، وعذابا في الآخرة في جهنم وبئس القرار .

(يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا ، أحصاه الله ونسوه ، والله على كل شيء شهيد) أى واذكر لهم أيها الرسول حالهم يوم يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد ، فيخبرهم بما كسبت أيديهم تشهيرا لهم وخزيا على رؤوس الأشهاد ، والله قد حفظه وضبطه وهم قد نسوه ، والله شهيد على كل شيء ، فلا يغيب عنه شيء ، ولا يفتنى شيئا .

وفي هذا شديد الوعيد والتقريع العظيم والتنذيم ، ليعرفوا أن ما حاق بهم من العذاب ، إنما كان من جراء أعمالهم وقبيح أفعالهم .

ثم أكد ما سبق من إحاطة علمه تعالى بكل شيء فقال :

(ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا) أى ألم تعلم أنه تعالى يعلم ما في السموات وما في الأرض ، فلا يتناجى ثلاثة إلا والله معهم ويعلم ما يقولون وما يدبرون ، ولا خمسة إلا وهو سادسهم يعلم ما به يتناجون ، ولا نجوى أكثر من هذه الأعداد ولا أقل منها إلا وهو عليم بها ، وعليم بزمانها ومكانها لا يخفى عليه شيء من أمرها .

وإنما خص هذه الأعداد ، لأن أقل ما لابد منه في المشاورة التي يكون الغرض منها تدبير المصالح العامة — ثلاثة فيكون الاثنان كالمتنازعين نفيًا وإثباتًا ، والثالث كالحكم بينهما ، وحينئذ تكمل المشورة ويتم الغرض ، وهكذا في كل جمع اجتمعوا للمشورة لابد من واحد يكون حكمًا مقبول القول ، ومن ثم يكون عدد رجال المشورة فردا كما جاء في الآية ونحوها قوله : « أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ » وقوله : « أَلَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَنَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ؟ بَلَى وَرُسُلْنَا لَنَسْمَعُهُمْ يُكْتَبُونَ »

(ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم) أى ثم ينبئ هؤلاء المتناجين بما عملوا من عمل يحبه أو يسخطه يوم القيامة، وإنه لعليم بنجواهم وأسرارهم لا تخفى عليه خافية من أمرهم .

وقد علمت أن هذا الإنباء إنما هو للتنديم وزيادة التقريع والتوبيخ على مرأى ومسمع من أهل الموقف ، فيكون ذلك أنكى وأشد إيلامًا لهم .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَهَوْنَا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نَهَوْنَا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْأَيْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ ، وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِعَالَمٍ يَحْيِكَ بِهِ

اللَّهُ ، وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ، حَسْبُ لَهُمْ جَهَنَّمُ
يَصْلَوْنَهَا فَبئسَ الْمَصِيرُ (٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا
بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ ، وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ
الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩) إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا
وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٠) .

شرح المفردات

الذين نهوا عن النجوى : هم اليهود والمنافقون ، بالإثم : أى بما هو معصية وذنب ،
والعدوان : الاعتداء على غيرهم كعصية الرسول ومخالفته ، لولا يعذبنا الله : أى هلا
يعذبنا بسبب ذلك ، حسبهم جهنم : أى عذاب جهنم كاف لهم ، يصلونها : أى
يقاسون حرَّها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه عليم بالسر والنجوى ، وأنه لا تخفى عليه خافية من
أمرهم ، فهو عليم بما يكون من التناجى بين الثلاثة والخمسة والأكثر والأقل ،
ومجازيهم على ما يكون به التناجى — خاطب رسوله معجباً له من اليهود والمنافقين
الذين نهوا عن التناجى دون المؤمنين ، فعادوا لما نهوا عنه ، وما كان تناجيهم إلا
بما هو إثم وعدوان على غيرهم ، ثم ذكر أنهم كانوا إذا جاءوا الرسول حيّوه بغير
تحية الله ، فيقولون له : السام عليك (يريدون الموت) ثم يقولون فى أنفسهم : لو كان
رسولاً لعذبنا الله للاستخفاف به ، وإن جهنم لكافية جد الكفاية لعذابهم : ثم نهى
المؤمنين أن يفعلوا مثل فعلهم ، بل يتناجون بالبر والتقوى ؛ ثم بين أن التناجى
بالإثم والعدوان من الشيطان ولن يضيرهم شئ منه إلا بإذن الله ، فعليه فليتوكّلوا .

الإيضاح:

(ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه) « روى أن اليهود كانوا إذا سر بهم أحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم جلسوا يتناجون فيما بينهم حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بقتله أو بما يكره ، حتى إذا رأى ذلك خشيمهم ، فترك طريقهم ، فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فلم ينتهوا وعادوا إلى النجوى فأنزل الله الآية » .
ثم بين ما به يتناجون فقال :

(ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول) أى وهم يتحدثون فيما بينهم بما هو إثم في نفسه ووباله عليهم ، وبما هو تعدٍ على المؤمنين ، وتواص بمخالفة الرسول صلوات الله وسلامه عليه .
ثم ذكر جرماً آخر يقع منهم فقال :

(وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله) روى البخارى ومسلم وغيرهما عن عائشة « أن ناساً من اليهود دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : السام عليك يا أبا القاسم ، فقال عليه السلام : وعليكم ، قالت عائشة : وقلت : عليكم السام ولعنكم الله وغضب عليكم ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : يا عائشة عليك بالرفق ، وإياك والعنف والفحش ، فقلت : ألا تسمعونهم يقولون السام ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : أو ما سمعت ما أقول : وعليكم ؟ فأزل الله تعالى (وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ) الآية » .

(ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول) أى يفعلون هذا ويقولون ما يحرفون من الكلام وإيهام السلام وهم يريدون شتمه ، ويحدثون أنفسهم أنه لو كان نبياً حقاً لعذبنا الله بما نقول ، لأن الله يعلم ما نسمره ، فلو كان نبياً حقاً عاجلنا بالعقوبة فى الدنيا فردّ الله عليهم بقوله :

(حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير) أى وإن جهنم وما فيها من العذاب الأليم لكافية لعقابهم ونكالهم ، وقد أجل عذابهم إلى هذا اليوم .

ثم قال تعالى مؤدبا عباده المؤمنين ألا يكونوا مثل اليهود والمنافقين فقال :

(يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتهم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول) أي إذا حدث منكم أيها المؤمنون تفاج ومسارة في أئديتكم وخلواتكم ، فلا تفعلوا كما يفعل أولئك الكفار من أهل الكتاب ومن مالأهم على ضلالهم من المنافقين .
(وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذي إليه تحشرون) أي وتناجوا بما هو خير واتقوا الله فيما تأتون وما تدرن ، فإليه تحشرون فيجميع أعمالكم وأقوالكم التي أحصاها عليكم ، وسيجزىكم بها .

ثم بين الباعث لهم على هذه النجوى والمزين لهم ذلك فقال :

(إنما النجوى من الشيطان) أي إنما التناجى بالإثم والعدوان من وسوسة الشيطان وتزيينه .

ثم ذكر السبب الذي حداه إلى ذلك فقال :

(ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئا إلا يأذن الله) أي إنما نعل ذلك يسوء الذين آمنوا بإيهاهم أن ذلك في نكبة أصابتهم ، وليس الشيطان بضار المؤمنين شيئا إلا بإرادة الله ومشئته .

(وعلى الله فليتوكل المؤمنون) أي إن ما يتناجى به المنافقون مما يحزن المؤمنين إن وقع ، فإنما يكون بإرادة الله ومشئته ، فلا يكترن المؤمنون بتناجيتهم ، وليتوكلن على الله ولا يحزنن .

وقد وردت السنة بالنهى عن التناجى إذا كان في ذلك أذى لمؤمن . أخرج البخارى ومسلم والترمذى وأبو داود عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج اثنان دون الثالث إلا بإذنه ، فإن ذلك يحزنه » .

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا
 يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ ، وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَاَنْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا
 مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١) .

شرح المفردات

تفسحوا : أى توسعوا وليفسح بعضهم عن بعض ، من قولهم : افسح عني أى تنحّ ،
 يفسح الله لكم : أى فى رحمته ويوسع لكم فى أرزاقكم ، انشروا : أى انهضوا للتوسعة
 على المقبلين ، فانشروا أى فانهضوا ولا تتباطئوا ، يرفع الله الذين آمنوا : أى يرفع
 منزلاتهم يوم القيامة ، ويرفع الذين أوتوا العلم درجات ، أى ويرفع العالمين منهم خاصة
 درجات فى الكرامة وعلو المنزلة .

المعنى الجملى

بعد أن نهى عباده المؤمنين عما يكون سبباً للتباغض من التماجي بالإنم
 والعدوان — أمرهم بما يكون سبب التواد والتوافق بين بعض المؤمنين وبعض :
 من التوسع فى المجالس حين إقبال الوافد ، والانصراف إذا طلب منكم ذلك .
 فإذا فعلتم ذلك رفع الله منازلكم فى جناته ، وجعلكم من الأبرار الذين لاخوف
 عليهم ولاهم يحزنون .

الإيضاح

('يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ')
 أى يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا بِرَسُولِهِ ، إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَوْسَعُوا فِي مَجَالِسِ رَسُولِ اللَّهِ
 أَوْ فِي مَجَالِسِ الْقِتَالِ ، فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ فِي مَنَازِلِكُمْ فِي الْجَنَّةِ .

أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان قال : « كان صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة في الضُّعَّةِ وفي المكان ضيق ، وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار ، فجاء ناس منهم ثابت بن قيس وقد سُبِقُوا إلى المجالس ، فقاموا حيال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، فرد النبي صلى الله عليه وسلم ثم سلموا على القوم فردوا عليهم ، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم ، فلم يفسحوا لهم ، فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لبعض من حوله : قم يا فلان ، قم يا فلان ، فأقام نفرًا بمقدار من قدم ، فشق ذلك عليهم ، وعرفت كراهيته في وجوههم ، وطعن المنافقون وقالوا : والله ما عدل على هؤلاء ، إن قوما أخذوا بمجالسهم وأحبوا القرب منه ، أقامهم وأجلس من أبطأ عنه فنزلت الآية » .

وقال الحسن : كان الصحابة يتشاحون في مجالس القتال إذا اصطفوا للحرب ، فلابس بعض بعضهم لبعض رغبة في الشهادة ، ومن الآية نعلم :

(١) أن الصحابة كانوا يتنافسون في القرب من مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم لسماع حديثه ، لما فيه من الخير العميم ، والفضل العظيم ، ومن ثم قال عليه الصلاة والسلام : « ليليني منكم أولو الأحلام والنهى » .

(٢) الأمر بالتفسيح في المجالس وعدم التضام فيها متى وُجد إلى ذلك سبيل ، لأن ذلك يدخل المحبة في القلوب ، والاشترائك في سماع أحكام الدين .

(٣) إن كل من وسع على عباد الله أبواب الخير والراحة ، وسع الله عليه خيرات الدنيا والآخرة .

وعلى الجملة فالآية تشمل التوسع في إيصال جميع أنواع الخير إلى المسلم وإدخال السرور عليه ، ومن ثم قال عليه الصلاة والسلام « لا يزال الله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه » .

(وإذا قيل انشروا فانشروا) أى وإذا دعيتم إلى القيام عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقوموا ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يؤثر الانفراد أحيانا لتدبير شئون الدين ، أو لأداء وظائف تخصصه لا تؤدى أو لا يكمل أداؤها إلا بالانفراد .

وقد عمموا هذا الحكم فقالوا : إذا قال صاحب مجلس لمن في مجلسه قوموا ينبغي أن يجاب .

ولا ينبغي لقادم أن يقيم أحداً ليجلس في مجلسه ؛ فقد أخرج مالك والبخارى ومسلم والترمذى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ، ولكن تفسحوا وتوسعوا » .

(يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) أى يرفع الله المؤمنين بامثال أوامره وأوامر رسوله ، والعالمين منهم خاصة درجات كثيرة في الثواب ومراتب الرضوان .

وإخلاصة — إنكم أيها المؤمنون إذا فسح أحدكم لأخيه إذا أقبل ، أو إذا أمر بالخروج فخرج ، فلا يظن أن ذلك نقص في حقه ، بل هو رفعة وزيادة قربى عند ربه ، والله تعالى لا يضيع ذلك بل يجزى به في الدنيا والآخرة ، فإن من تواضع لأمر الله رفع الله قدره ، ونشر ذكره .

(والله بما تعملون خبير) أى والله بأعمالكم ذوخبرة لا يخفى عليه المطيع منكم من العاصي ، وهو مجازيكم جميعاً بأعمالكم ، فالحسن بإحسانه ، والمسيء بالذى هو أهله أو يعفوه .

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صِدْقَةً ، ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢) ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صِدْقَاتٍ ،

فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا
اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣)

شرح المفردات

ناجيتم الرسول : أى أردتم مناجاته والحديث معه ، فقدموا بين يدي تجواكم
صدقة : أى فتصدقوا قبلها ، أظهر : أى أزكى ، التعويد النفس بذل المال وعدم الضن
به ، أسفقتم : أى خفتم ، تاب الله عليكم : أى رخص لكم فى المناجاة من غير
تقديم صدقة .

المعنى الجملى

علمت من الآية السانفة أن المؤمنين كانوا يتنافسون فى القرب من مجلس
رسول الله صلى الله عليه وسلم لسماح أحاديثه وللمناجاة فى أمور الدين ، وأكثروا
فى ذلك حتى شقّ عليه صلى الله عليه وسلم وشغلوا أوقاته التى يجب أن تكون موزعة
بين إبلاغ الرسالة والعبادة ، والقيام ببعض وظائفه الخاصة ، فإنه بشر يحتاج إلى قسط
من الراحة ، وإلى التحنث إلى ربه فى خلواته .

من أجل هذا نزلت هذه الآيات أمرت بوجوب تقديم الصدقات قبل المناجاة
الرسول والحديث معه ، لما فى ذلك من منافع ومزايا :

(١) إعظام الرسول وإعظام مناجاته ، فإن الشئ إذا نبيل إذا نبيل مع المشقة استعظم ،
وإن نبيل بسهولة لم يكن له منزلة ورفعة شأن .

(٢) نفع كثير من الفقراء بتلك الصدقات المقدمة قبل المناجاة .

(٣) تمييز المنافقين الذين يحبون المال ويريدون عرض الدنيا - من المؤمنين
حقّ الإيمان الذين يريدون الآخرة وما عند الله من نعيم مقيم .

قال ابن عباس : إن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى شقوا عليه ، وأراد الله أن يخفف عن نبيه فأنزل هذه الآيات فكف كثير من الناس عن المناجاة .

الإيضاح

(يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يديكم صدقة) أي أيها المؤمنون إذا أراد أحد منكم أن يناجي الرسول ويسأله فيما بينه وبينه - فليقدم صدقة قبل هذا ، لما في ذلك من تعظيم أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ونفع الفقراء والتمييز بين المؤمن حقا والمنافق ، ومحبة الآخرة ومحبة الدنيا ، ومن دفع التكثار عليه صلى الله عليه وسلم من غير حاجة ملحة إلى ذلك .

ثم ذكر العلة في هذا فقال :

(ذلك خير لكم وأطهر) أي إن في هذا التقديم خيرا لكم لما فيه من الثواب العظيم عند ربكم ، ومن تركيبة النفوس وتطهيرها من الجشع في جمع المال وحب ادخاره ، وتعويدها بذله في المصالح العامة كإغاثة المهوف ، ودفع خصاصة فقير ، وإعانة ذي حاجة ، والنفقة في كل ما يرقى شأن الأمة ويرفع من قدرها ، ويعلى كلمتها ، ويؤيد الدين وينشر دعوته .

ثم أظام العذر للفقراء فقال :

(فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم) أي فإن لم تجدوا الصدقة أيها الفقراء وعجزتم عن ذلك فإله قد رخص لكم في المناجاة بلا تقديم لها ، لأنه ما أمر بها إلا من قدر عليها .

وقد شرع هذا الحكم لتمييز الخاص من المنافق ، فإما تم هذا الغرض انتهى ذلك الحكم ورخص في المناجاة بدون تقديم صدقة ، فقال :

(ءأشققتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات) أى أبخاتم وخفتم العيلة والفاقة إن قدمتم الصدقات ، ووسوس لكم الشيطان أن فى هذا الإنفاق ضياعا للمال ؟
 (فأذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم) أى فحين لم تفعلوا ما أمرتم به ، وشق ذلك عليكم ، خفف عليكم ربكم فرخص فى المناجاة من غير تقديم صدقة ، فتداركوا ذلك بالمثابرة على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة كما قال :

(فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله) أى فأدوا الصلاة وقوموها بأدائها على أكمل الوجوه ، لما فيها من الإخبات إلى الله والإنابة إليه والإخلاص له فى القول والعمل ، ونهياها عن الفحشاء والمنكر ، ولما فى الزكاة من تطهير النفوس وإزالة الشح بالمال المستحوذ على القلوب الدافع لها إلى ارتكاب الشرور والآثام .
 وأطيعوا الله فيما يأمركم به من الفرائض والواجبات ، وبينها كم عنه من اللوبات .
 ثم وعد وأوعد فقال :

(والله خير بما تعملون) فهو محيط بنواياكم وأعمالكم ، ومجازيكم بما قدمتم لأنفسكم من خير أو شر ، كما قال « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » وقال : « وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى ، وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يُرَى ، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الأَوْفَى » .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَاهُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ ، وَيَحْلِفُونَ عَلَى الكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٥) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٦) لَنْ نُعْطِيَهُمْ أَموالَهُمْ وَلَا أَوْلَادَهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٧) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ

اللَّهُ جَمِيعًا فَيَخْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَخْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ،
 أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٨) اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ
 ذِكْرَ اللَّهِ ، أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ، أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ
 هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩) .

شرح المفردات

ألم تر : أى أخبرنى وهو أسلوب من الكلام يراد به التعجب وإظهار الغرابة
 للمخاطب ، والمراد من الذين تولوا: المنافقون، والتولى : من الموالاة وهى المودة والمحبة ،
 والقوم : هم اليهود ، وغضب الله : سخطه والطرده من رحمته ، ما هم منكم ولا منهم :
 أى لأنهم مذنبون ، على الكذب : أى على أنهم معكم على الإيمان ، جنة : أى
 وقاية وسترا عن المؤاخذة ، على شئ : أى من جلب منفعة أو دفع مضرة ، استحوذ
 على الشئ : حواه وأحاط به ؛ قال المبرد ويقال حاوزت الإبل وحزمتها إذا استوليت
 عليها وجمعتها ، قالت عائشة : كان عمر أحوذيا نسيج وحده : أى سائسا ضابطا
 للأمور لانظيره ، فأنساهم ذكر الله : أى لم يمكنهم من ذكره بما زين لهم من
 الشهوات ، وحزب الشيطان : جنوده وأتباعه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يتنافسون فى القرب
 من مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم لتلقى الدين عنه والاهتداء بهديه حتى كان
 يضيّق بهم المجلس ، فأمروا أن يتوسعوا ولا يتضاموا - ذكر هنا حال قوم من المنافقين
 يوادون اليهود ويطلعونهم على أسرار المؤمنين ، فهم عيون لهم عليهم ، وإذا لقوا
 المؤمنين قالوا لهم : إنا معكم نؤيدكم على أعدائكم بكل ما أوتينا من قوة وهم كاذبون

في كل ما يقولون وقد جعلوا الإيمان وقاية لسترا ما يبطنون ، فأمنوا من المؤاخذة وجاسوا
 خلال ضعفاء المؤمنين يصدونهم عن الدين ويذكرون لهم ما يبغضهم فيه ؛ ثم أبان أن
 الله قد أعد مثل هؤلاء عذابا شديدا يوم القيامة ، وما هم فيه من مال وولد في الدنيا لن
 يغنى عنهم شيئا حينئذ ؛ ثم ذكر أن الذي جرائهم على ما فعلوا هو الشيطان ، فقد
 استولى على عقولهم ، وزين لهم قبيح أعمالهم ، فأنساهم عذاب اليوم الآخر ؛ ثم ذكر
 أن أولئك هم جنود الشيطان ، وجنود الشيطان لن تفلح في شيء ، وسيرد الله عليهم
 كيدهم في نحورهم ، ويحبط سعيهم ، ويظهر نور دينه ولو كره الكافرون .

الإيضاح

(ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم) أى أخبرني عن حال هؤلاء
 المنافقين الذين اتخذوا اليهود أولياء يناصحونهم وينقلون إليهم أسرار المؤمنين؛ إن حالهم
 لتستدعي العجب ، يقابلون كل قوم بوجه ، فهم مع اليهود نصحاء أمناء يبلغونهم
 ما يعرفونه من دخائل المؤمنين اكتسابا لصدقاتهم وودعهم ، ومع المؤمنين مؤمنون
 مخلصون قد بلغ الإيمان قرارة نفوسهم ، وملك عليهم مشاعرهم وحواسهم ؛ والحقيقة
 أنهم يمدعون الفئتين كما أشار إلى ذلك سبحانه بقوله :

(ما هم منك ولا منهم) أى فلا هم بالمؤمنين حقا بل هم مؤمنون من طرف
 اللسان مداراة للمؤمنين وخوفا من بطشهم ، ولا هم مع اليهود ، لأنهم لا يعتقدون
 أنهم على الدين الحق ، ولكنهم يريدون أن ينتفعوا بما عندهم من عرض الدنيا ،
 وأن يحتفظوا بمودتهم إذا احتاجوا إليها ، فهم كما قال الله فيهم : « مَذْبُذِبِينَ بَيْنَ
 ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ » وفي الخبر « مثل المنافق مثل الشاة العائرة
 بين غنمين » أى المترددة بين قطيعين « لا تدرى أيهما تتبع »

ثم ذكر أنهم يؤكدون إيمانهم وإخلاصهم بالأيمان الكاذبة فقال :

(ويحلفون على الكذب وهم يعلمون) أى وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا إنا آمننا
وإذا جاء الرسول حلفوا وقالوا له : نشهد إنك لرسول الله ، والله يشهد إنهم لكاذبون
فيما يقولون ، لأنهم لا يعتقدون صدقه .

ثم ذكر ما لهم وبين ما يلقون من النكال والويل فقال :
(أعد الله لهم عذابا شديدا إنهم ساء ما كانوا يعملون) أى أرسد الله لهم نكالا
وعذابا أليما جزاء صنيعهم بغش المسلمين وإطلاع أعدائهم على أسرارهم ونصحهم لهم .
ثم ذكر ما جعلوه تسكاة لهم على تصديقهم فقال :

(اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله) أى أظهروا الإيمان وأبطنوا
الكفر واستروا بالإيمان الكاذبة ، فظن كثير من لا يعرف حقيقة أمرهم أنهم
صادقون ؛ وبهذه الوسيلة صدوا كثيرا من الناس عن سبيل الله بتبسيط من لقوا عن
الدخول في الإسلام بتحقيق شأنه في نظرهم .
ثم بين ما كافأهم به على عملهم فقال :

(فلهم عذاب مهين) أى فلهم عذاب يلحقهم به الذل والهوان في النار جزاء
ما امتنوا اسمه الكريم بالخلف به كذبا .
ثم أرشد إلى أن ما ظنوه منجيا لهم من عذاب الله من المال والأولاد - ليس
بمنافع لهم حينئذ فقال :

(لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا أولئك أصحاب النار هم فيها
خالدون) أى لن تغنى عن هؤلاء المنافقين الأموال فيفتدوا بها من عذاب الله ،
ولا الأولاد فينصروهم وينقذوهم من العذاب إذا هو عاقبهم ، فأولئك هم أهل النار
وهم خالدون فيها أبدا ، وقد تقدم مثل هذا في غير موضع من الكتاب الكريم .
(يوم يجمعهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم) أى وأذكر لهم أيها الرسول
حالمهم يوم يجمعهم الله جميعا من قبورهم أحياء كهيئتهم قبل مماتهم ، فيحلفون له

قائلين : « وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ » كما كانوا يحلفون لكم في الدنيا إنهم
مؤمنون مثلكم .

(ويحسبون أنهم على شيء) أى ويعتقدون أن ذلك نافع لهم ، فيجلب لهم
الخير ، ويدفع عنهم الضرر ، كما كان ذلك شأنهم في الدنيا ، إذ كانوا يدعون بتلك
الأيان الفاجرة عن أرواحهم وأموالهم ويحصلون على فوائد دنيوية أخرى .
ثم رد عليهم منكرها لهم فقال :

(ألا إنهم هم الكاذبون) فيما يحلفون عليه زعما منهم أن أيمانهم الفاجرة تروج
الكذب لديه تعالى ، كما تروجه لدى المؤمنين في الدنيا .

ونحو الآية قوله : « ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنْتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا
مُشْرِكِينَ . أَنْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ » .
ثم بين السبب الذى أوقعهم فى الردى وأوصلهم إلى قرارة جهنم فقال :

(استعوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله) أى غلب على عقولهم بوسوسته
وتزيينه حتى اتبعوه ، فلم يمكنهم من ذكر الله واتباع أوامره وترك نواهيه ، بما زين
لهم من الشهوات فأوقعهم فى دركات جهنم ، وبئس المصير .

(أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون) أى أولئك
هم جنود الشيطان وأعوانه ، وإن جنده لهم الهالكون المغبونون فى صفتهم ، إذ هم
قد فوتوا على أنفسهم النعيم المقيم ، واستبدلوا به العذاب الأليم ، وليس من دأب
العاقل أن يقبل مثل هذا نفسه .

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (٢٠) كَتَبَ
اللَّهُ لَأَعْلَبِينَ أَنَا وَرُسُلِي ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١) لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ
بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ

أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ، أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ
وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
فِيهَا ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ، أَلَا إِنَّ حِزْبَ
اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢) .

شرح المفردات

يحادون : أى يعادون ويشاقون ، فى الأذلين : أى فى جملة أذل خلق الله ،
لأن ذلة أحد المتخاصمين على مقدار عزة الآخر ، كتب الله : أى قضى وحكم ،
لأغلبين : أى بالحجة والسيف ، وأيدهم : أى قوامهم ، بروح من عنده : أى بنور
يقذفه فى قلب من يشاء من عباده ، لتحصل له الطمأنينة والسكينة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر حال أولئك المنافقين الذين يحلفون كذبا إنهم مؤمنون ، ويماثلون
المؤمنين طورا واليهود طورا آخر اكتسابا لرضا القرىقين ، ثم بين أن الذى حملهم
على ذلك هو الشيطان ، إذ غلبهم على أمرهم حتى أنساهم ذكر الله وما يجب له من
تعظيم ووجوب اعتقاد باليوم الآخر ، ثم حكم عليهم بأن صفتهم خاسرة ، لأنهم
باعوا الباقى بالقانى والزائل الذى لا دوام له بما هو دائم أبدا سرمدا - بين هنا سبب
خسرانهم وهو أنهم شاقوا الله ورسوله وعصوا أمرهما ، فكتب عليهم الذلة فى الدنيا
والآخرة ، إذ قد قضى بأن العزة والقلب له ولرسوله ، والذلة لأعدائه ؛ ثم ذكر أن
الإيمان الحق لا يجتمع مع موالاته أعدائه مهما قرب بهم النسب بأن كانوا آباء أو أبناء
أو إخوانا أو من ذى العشيرة ، لأن المحادين كتبت عليهم الذلة ، وأولئك كتبت لهم
العزة ، وقوام ربهم بالطمأنينة والثبات على الإيمان ، وهم جند الله وناصروه دينه ،

وحزب الله مفلح لا محالة وقد كتبت له السعادة في الدارين كما قال : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ »

الإيضاح

(إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين) أى إن الذين يخالفون أوامر الله ونواهيه ، ويمتنعون عن أداء ما فرض عليهم من فرائضه ، هم في جملة أهل الذلة ، لأن الغلبة لله ورسوله ، ودلهم في الدنيا يكون بالقتل والأسر والإخراج من الديار كما حصل للمشركين واليهود ، وفي الآخرة بالخزى والنكال والعذاب الأليم كما قال سبحانه : « رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ »

وفي هذا إشارة للمؤمنين بأنه سيظهرهم على عدوهم ويكتب لهم الفوز ويكونون هم الأعداء وسواهم الأذلاء .

ثم أكد ماسلف بقوله :

(كتب الله لأغلين أنا ورسلي) أى قضى الله وحكم في أم الكتاب بأن الغلبة بالحقبة والسيف وما يجرى مجراها تكون لله ورسوله ، فقد أهلك كثيرا من أعدائهم بأنواع من العذاب كقوم نوح وقوم صالح وقوم لوط وغيرهم (والحرب بين نبينا وبين المشركين ، وإن كانت سجالا كانت العاقبة فيها له عليه الصلاة والسلام) ثم تكون لأتباعه من بعده ما داموا على سنته ، محافظين على الحدود التي أمروا بها ، وجاهدوا عدوهم جهادا خالصا لله على نحو جهاد الرسل ، لا لطلب ملك وسلطان ، ولا لطلب دنيا ومال . وعن مقاتل قال : لما فتح الله تعالى مكة للمؤمنين والظانف وخبير وما حولها ، قالوا نرجو أن يظهرنا الله على فارس والروم ، فقال عبد الله بن أبي راس المنافقين : أتظنون أن فارس والروم كيعض القرى التي هلكتم عليها ؟ والله إنهم لأكثر عددا وأشد بطشا من أن تظنوا فيهم ذلك فنزلت : « كَتَبَ اللَّهُ لِأَغْلِينَ أَنَا وَرُسُلِي » .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ، إِنْ هُمْ لَهُمْ الْمَتَّصِرُونَ ، وَإِنْ جُنَدُنَا لَهُمُ الْعَالِيُونَ » .
 (إن الله قوى عزيز) أى إن الله الذى له الأمر كله — قوى على نصر رسله لا يُغْتَاب على مراده ، فمضى أراد شيئاً كان ولم يجد معارضا ولا مانعا كما قال : « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » .

(لا تجدد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادَّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم) أى لا تجدد قوما يجتمعون بين الإيمان بالله واليوم الآخر ، وموادة أعداء الله ورسوله ، لأن إيمان المؤمنين يفسد بموادة الكافرين ، إذ من كان مؤمنا حقا لا يوالى كافرا ، فمن أحب أحدا امتنع أن يوالى عدوه ، والمراد من موالاته مناصحته وإرادة الخير له فى الدين والدنيا ، أما الملاحظة والمعاشرة فليست بمحظورة ؛ ولقد أصاب المسلمين اليوم من ذلك بلاء شديد ، فإننا نرى الأمم الإسلامية أصبحت فى أخريات الأمم ، وأبناؤها فى شمال أفريقيا وفى مصر وغيرها يوالون الإفريقية وينصرونهم على أبناء جنسهم ، ولو كان فى هذا ذل لهم ولدينهم وأمتهم ، ولن يزول هذا إلا بالاستشعار بالعمة والكرامة القومية والدفاع عن حوزة الدين ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

ثم بالغ فى الزجر وأبان أنه لا يتبغى لمؤمن أن يفعل ذلك ولو مع الأقارب كالآباء الذين يجب طاعتهم ومصاحبتهم فى الدنيا بالمعروف ، أو الأبناء الذين هم فليات الأاكباد ، أو الإخوان الذين هم الناصرون لهم ، أو العشيرة الذين يعتمد عليهم بعد الإخوان .

والخلاصة — إنه لا يجتمع إيمان مع موادة أعداء الله ، لأن من أحب أحدا امتنع من محبة عدوه ، فإذا حصل فى القلب موادة أعداء الله لم يحصل فيه الإيمان الصحيح وكان صاحبه منافقا .

أخرج الطبراني والحاكم والترمذي مرفوعاً « يقول الله تبارك وتعالى : وعزتي لا ينال رحمتي من لم يوال أوليائي ، ويعاد أعدائي » وأخرج الديلمي من طريق الحسن عن معاذ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم لا تجعل لفاجر ولا لغاش على يدي ولا نعمة فيودّه قلبي ، فإني وجدت فيما أوحيت إليّ : لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادّ الله ورسوله » .

وقيل إن الآيات نزلت في أبي بكر رضي الله عنه ، أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : حدثت أن أبا قحافة سبّ النبي صلى الله عليه وسلم فصكه أبو بكر صكة سقط بها على وجهه ، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : أفعلت يا أبا بكر ؟ قال نعم ، قال لا تعدّ ، قال والله لو كان السيف قريباً مني لقتلته .

وقيل نزلت في أبي عبيدة بن عبد الله الجراح ، أخرج ابن أبي حاتم والطبراني وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال : جعل والد أبي عبيدة يتصدى له يوم بدر ، وجعل أبو عبيدة يحيد عنه ، فلما أكثر قصده أبو عبيدة فقتله فنزلت : (لا تجد قوماً) الآية .

(أولئك كتب في قلوبهم الإيمان) أي أولئك الذين سلفت أوصافهم أثبت الله في قلوبهم الإيمان ، والإيمان نعمة عظيمة لا تحصل لمن يوادّ من حادّ الله ورسوله . وفي هذا مبالغة في الزجر عن موادة أعداء الله .

ثم ذكر سبباً آخر يمنع من موادتهم فقال :

(وأيدهم بروح منه) أي إنه قواهم بطمأنينة القلب والثبات على الحق ، فلا يبالون بموادة أعداء الله ولا يابهون لهم .

ثم ذكر ما أعده لهم من النعيم المقيم فقال :

(ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدون فيها) أي ما كثرت فيها أبدانهم .

ثم ذكر السبب فيما أفاض الله عليهم من نعمة فقال :

(رضى الله عنهم ورضوا عنه) أى أعادق عليهم من رحمته العاجلة والآجلة ، فأدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، ورضوا عنه لابتهاجهم بما أوتوه عاجلا وآجلا ، فإنهم لما سخطوا على الأقارب والعشائر فى الله تعالى — عوضهم الله بالرضا عنه ، وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم ، والفوز العظيم ، والفضل العميم .
ثم أشاد بتشريفهم فجعلهم جنده تعالى فقال :

(أولئك حزب الله الأيّن حزب الله هم المفلحون) أى أولئك أنصار الله وجمده وأهل كرامته ، وهم أهل الفلاح والسعادة والنصرة فى الدنيا والآخرة .

خلاصة موضوعات هذه السورة الكريمة

- (١) ألفة الأزواج فى المنازل .
- (٢) ألفة الأصحاب فى المجالس .
- (٣) الأدب مع الحكام بترك مضايقتهم ، لكثرة أعمالهم .
- (٤) رفق الحكام بالمحكومين إذا رأوا أمراً يُثقلهم .
- (٥) مجانبة خيانة الأمة بموالاة أعدائها ، وبالنفاق والشقاق ، فإن ذلك يضعفها ويفرق جمعها وينذلها .